تاريخ فلسفة التاريخ

بقلم علي زيعور

في الكتابة عن الماضي صعوبات عديدة وعقبات جمة، وكعمل تعاكسي ضد المدرسة الموضوعية نشأت مع الالماني فلهلم دلثي « الفلسفة النقدية » في التاريخ . ثم قويت هذه النزعة تحت تأثير اصحاب المدرسة الكانتية الجديدة امثال فندل باند وريكرت وسيمل ، ومكن لها من ناحية اخرى ماكس فيبر ثم الحركة الوجودية فيما بعد (١) ...

كان الاقدمون يدعون الى الاخذ التام بمبدأ الموضوعية عند كتابة اي حادثة ماضية كنبذ العواطف مثلا وذكر الحقيقة الجلية دون تحيز و... و.. دون ان ينظروا في امكانية هذه الامور او عدمها بل وضعوا ـ كالمطمئن الواثق ـ مخططات وقواعد يتبعها المؤرخ ويرتسمها حتى لا يخطىء ، وقسمت هذه المخططات الحامدة الى نقد خارجي واخر داخلي وكل من هذين يقسم بدوره الى اجزاء وله مناهجه (٢) . ونرى في نظرات ابن خلدون العميقة (٣) ما يشبه هذه الطرق والاسبقيات التي تقيد المؤرخ وتضيق عليه حريته وتزعم انها ترشده وتهديه .

والمذهب التاريخي الجديد لا يؤمن بصدق الايجابيين المفترض ويهاجم بعنف وشدة مزاعمهم رافضا الاطر العقلية المقدمة للمؤرخ في قوالب عقلانية جامدة ، وخاصة فيما يتعلق بما يسمونه الموضوعية المطلقة التي تسرب الشك الى سلامة وجودها وكينونتها ، فيقول مثلا دلبياز « اننا نعرف تماما ان الموضوعية التامة هي الحد الاقصى المثالي الذي لا يمكن لرجل العلم بلوغه ابدا ...» (٤) ويقول كلابارید « ليست الشهادة الصحيحة هي القاعدة بل هي الشواذ » . ويقول غيرهما : « ان الصواب يكمن في القول بان التاريخ القائم حسب متطلبات الموضوعيين يحتوي في معظمه على صفحات بيضاء » (٥) .. ومهما كانت صوابية التاريخ الموجود بين ايدينا فان اهميته لم توضع موضع الشك الا حديثا ، اذ هبطت فجاة كما قال نيتشه ، بعد ان قدس في المجتمعات البدائية والمتمدنة يقدسه المجتمع ويقدسه الفرد فهو ليس شيئا ثانويا يضاف على طبيعة الانسان بل هو جوهره «انني ماضي»(٦) و« يحدد عصر ما بان نعاكسه بماضيه» (٧) وفي العصر الحالي فان كل ثقافة متينة هي ثقافة تاريخية حسب قول نيتشه الذي بحث في هذا الموضوع الحديث ومن الناحية الجديدة فيه .

اما فلسفة التاريخ وهي موضوعنا ، فانها تجعل منه

(1) H.I. Marrou : de la connaissance historique P.P. 20-21
(2) Ibid P. 105
(3) المقدمة ، صفحة ٧ .
(4) Dalbiez : la psychanalyse et la méthode freudienne P. 265
(5) Marrou : Loco-cit P. 132
(6)-(7) R-Aron : Introduction à la philo de l'histoire P. 85

حتمية لا بد ان تتحقق وشيئا سيقع على الافراد الذين « تتجاهل وجودهم بفرضها عليهم سيرها ومشاريعها ثم تجبرهم على ان يكونوا المنفذين لهذه المشاريع (٨)

والنظرة الى الديانات قد ترينا اياها كمصدر لهذه الفلسفة من حيث المفاهيم الشاملة الكلية لله والانسان والوجود . فالديانة اليهودية تجعل في اخر سير الزمن جنة يحقق فيها المؤمن جميع رغباته وتحول مجرى التاريخ حسب طاعة العبد للاله او عصيانه له ، وقد خلق الله للانسان، لليهودي ، الدنيا وجعلها في خدمته : ان هذه النظرة الانتروبوسنترية للوجود تفسر التوسعية الاقتصادية اليهودية في عالم الرأسمالية وحتى في عالم الاشتراكية (منهم ماركس ولينين وتروتسكي وليون بلوم) ، وتعلل اخيرا اعتقادهم بانهم سيخلصون البشرية وينقذونها(٩)

ثم كانت الديانة المسيحية واتضح معها في التفكير البشري تلك العلاقة او الرابطة المتينة بين الانسان والتاريخ بين الماضي والمستقبل واعطت للفرد مفهوما تاريخيا ، فالخطيئة تجعل من ماضيه امرا ذا دلالة واهمية ثم ان عقيدتي النعمة والخلاص يضفيان على هذا الماضي شعاع المستقبل الساطع وبهذا « يعطي الدين للانسان معنى كما يعطيه للتاريخ والمستقبل ايضا »(١٠)

ونجد هذه الفلسفة عند القديس اغسطينوس وغيره من اباء الكنيسة ويعتبر بوسيه خاصة (١١) افضل من يعبر عن هذه الفلسفة والتفسير الديني للتاريخ .

من المعروف جدا ان لكل شعب دينه الخاص او على الاقل تيولوجياته الخاصة ولم يثبت علم الاجتماع البدائي وجود شعب بدون دين ما بينما على حد قول برغسون : قد نجد شعبا بدون علم . وسواء نتجت هذه من السحر والشعوذات او بالعكس فالقاسم المشترك بينها جميعها هو اعادة الاطمئنان الى نفس الفقير والمذنب ومن ثم تثبيت العلاقة الودية بين الطبيعة والفرد .

وهكذا فان فلسفة التاريخ سارت على نهج الاديان في اعادة الثقة الى القلوب الواجفة وانارتها بالامل وتنظيم الحياة تنظيما متناسقا بمنطقتها واقامة الحلقات المتكاملة بين الفرد والطبيعة والمجتمع والاله والحضارة .

ان القول بقانون واحد يفسر الماضي والمستقبل هو اذن الفلسفة التاريخية التي نقصدها وقد قال بذلك ابن خلدون فهو اول من ادعى بوجود ناموس شامل يفسر التطور البشري وتسير حسبه السلطة والرئاسة وكأنه

(8) Bréhier : Les thèmes actuels de la philosophie, P. 29
(9) Sombart : les juifs et la vie économique
(10) E-Bréhier : Loco cit P. 29
(11) A. Cuvillier : Manuel de sociologie P. 9

سبق فيكو وكونت بقانون العودة الدائمة للحالات . وانما تظهر لنا تشاؤمية ابن خلدون في مفهومه العضوي للمجتمع بتشبيهه بالكائن الحي من نمو ونضج ثم انحطاط وفناء(١٢) فالتشبيه هنا خاطيء ويؤدي من ناحية اخرى الى فكرة انقراض كل مجتمع .(١٣)

تبرز قضية ابن خلدون كمثل على صعوبة الموضوعية في التاريخ فيعده البعض كمؤسس لعلم الاجتماع ويعده اخرون صاحب نظرات في فلسفة التاريخ . وتلك الازدواجية بين الموضوعية والذاتية التي هي معضلة التاريخ الرئيسية والوحيدة التي سارت الفلسفة الحديثة شوطا بعيدا نحو حلها وتجاوزها بل ان الحركة الظاهرية وابنتها الحرة الوجودية قد انتهت هذه المشكلة بالنسبة اليهما « ان اهم كسب للظاهرية هو انها قد جمعت بلا ريب الذاتية المفرطة بالموضوعية المفرطة وذلك في مفهومها للعالم او للعقلانية (١٤) .

وفي العودة الى فلسفة التاريخ نرى ان القانون الوحدوي المفسر للماضي وللمستقبل ياخذ اسماء عدة واشكالا مختلفة لكنها كلها نظرات ناقصة ومبتورة فعن « حياة الجنس البشري نجهل طبعا المستقبل ولا نعرف الا نزرا يسيرا عن الماضي (١٥) فمثلا تفسير التاريخ

(12) A. Cuvillier - Loco cit P. 675

(13) Ibid. P. 675

(14) M. Merleau Ponty : Phénoménologie de la perception P. XV

مجموعات الآداب

لدى الادارة عدد محدود من مجموعات السنوات الثماني الاولى من الاداب تباع كما يلي :

	غير مجلدة	مجلدة
مجموعة السنة الاولى	٩٥ ل.ل	١٠٠ ل.ل
« « الثانية	٢٥ «	٣٠ «
« « الثالثة	٢٥ «	٣٠ «
« « الرابعة	٢٥ «	٣٠ «
« « الخامسة	٢٥ «	٣٠ «
« « السادسة	٢٥ «	٣٠ «
« « السابعة	٢٥ «	٣٠ «
« « الثامنة	٢٥ «	٣٠ «

والمجتمعات بعوامل المناخ او البيئة الجغرافية فكرة وجدت عند افلاطون وارسطو ثم صارت اليوم نواة ما يسمى بالسوسيوجغرافيا ويعد فريدريك راتزل خير ممثل لهذه الحركة المعاصرة يقول « ان الارض هي التي تنظم مصائر الشعوب بفظاظة عمياء » (١٦) ثم ان القول بالحتمية الجغرافية في تكوين الفرد والمجتمع اساسا ورأسا ، عاد فاخذ اشكالا اعم واشمل في العالم الجديد ومن خير ممثليه الانسة الن تشرشل سمبل اذ تعتبر التاريخ تتابعا للعوامل الجغرافية(١٧) ويطبق هذا المبدأ نفسه الزورف هونتنغتون A. Huntington على فلسطين فيفسر المراحل التي مر بها الشعب اليهودي بتغيرات في المناخ بمعنى ان هذا الاخير يصنع الانسان والانسان اليهودي الذي يقصده.

ولنعد الى الوراء ، لقد ارادت فلسفة التاريخ في القرن الثامن عشر خاصة الحلول محل التيولوجيات التي فشلت في اشباع ابن القرن الصناعي وتنظيم اوروبا التنظيم الاقتصادي السليم اذ شاع الاعتقاد بقدرة العلم على الكشف عن غوامض الكون ومعمياته ومن ثم فستزداد قدرة الانسان على التسلط على الطبيعة وتسخيرها لخدمته.

فجاء هيجل ومعه منطقه الجديد راغبا في جعل منهجه الديالكتيكي سرير بروكست . فقال ان التاريخ تحقيق الفكرة : تبدأ من النظرية التي تؤلف فيما بعد مع النظرة المعاكسة لها الفكرة التوفيقية ثم تعود الكرة ، وهكذا الى ان ننتهي بالوصول الى العقل المطلق ، الى الله (١٨)

اما ماركس فقد ذهب خطوات ابعد في عالم الماورائيات المدلهم فكان بحق من اكبر ممثلي فلسفة التاريخ وما نزال . كان من الذين فكروا كثيرا مع وضد هيجل فبعد ان ادعى بانه قلب ديالكتيكية استاذه راسا على عقب واوقفها على قدميها في قوله بان العوامل الاقتصادية هي التي تفسر التطور لا الفكرة او المثل او ما يسمى بالبناء الفوقي ، لم يلبث ان جعل من الطبقات ونزاعاتها ومن التقسيمات الاقتصادية «وحدات خيالية مجردة» (١٩) وينكر على ماركس ان تكون الازدواجية الطبقية وحيدة في المجتمع وموجودة في كل عصر وفي كل بلد او مؤثرة دائما بمقدار ما تكلم عنه فقد جعل من العمل مفهوما روحيا وكانه نفى عنه الصبغة المادية العادية التي كان يضفيها عليه الكلاسيكيون بل ان فريدريك روه (٢٠) قال ان ماركس جعل من العمل شيئا فكريا صرفا راجعا من حيث لا يشعر الى راي هيجل . ذلك ما فعله ارسطو في الماضي الذي وصل ايضا من غير قصد في دحضه لاراء افلاطون الى الراي نفسه الذي كان يرفضه ، فجعل من المادة ما كان يراه معلمه بالصورة .

ان ماركس كما يقول بارتوي كان « اصغر انبياء بني اسرائيل » ، فهذا الذي هاجم الدين بعنف لم يلبث ان اتى بدين جديد اصبح المؤمنون به اتقياء لهم نظرتهم الخاصة للوجود والانسان والاله الذي سمي هنا « البروليتاري » .

(15) J. Hours : Valeur de l'histoire P. 81

(16) A. Cuvillier Loco cit P. 331

(17) Ibid P. 334

(18) محاضرات الدكتور بشير العريضي في الفلسفة السياسية: الفصل الاخير

(19) G. Gusdorf traité de Métaphysique P. 254

(20) A. Cuvillier Loco cit P. 393

كان الوصول الى هذه النتيجة امرا حتميا كما حدث مع اغست كومت في السابق اذ بعد رفضه للاديان عاد فدعا لعبادة فظهـا هي « عبادة الانسانية » عبادة الغير ..

واخيرا تتجلى فلسفة ماركس التاريخية في ثقته العميـاء بان النهايـة السعيدة ستكون للطبقة العاملة التي تلغـي الطبقـات . فكان نفس ماركس التي عاشت قلقة تابى الا ان تخلـق تعويضا عما فقدته في حياتها مـن استقرار فتجعل امنياتها الخاصة مجمدة في عهد سوف يأتي ، غير تاريخي وبهذا نخرج الى عالم اوسع من العالم ، هو فلسفة التاريخ الفسيح .

اجل ، فعلم الاجتماع يسمح ببعض التنبؤات (٢١) لكن الغطس والشطح كان نحدد سيرا حتميا تفاؤليا للتاريخ،

اذ بهذا نخرج من نطاق الزمن لنقف عند نهاية طرفه الاخر ونحتم للتطور نهجا معينا يرتكز على « الايمان بخرافة التقدم » (٢٢) الايمان نفسه الذي نجده عند البدائيين . وقد يوضع هذا الحلم في بداية البشرية او في الحالتين فجاء مثلا ، عمانوئيـل كانـط وهيجـل وكـورنو كانبيـاء يبشرون بعصر كله طمانينة ورخاء بينما قال جون لوك ورسو ان السعادة والعدل والخير احوالا قديمة سبقت ومضت ، اما الاديان المنزلة فهي من جانبها تقول بعـدن مفقودة واخرى سينالها المؤمنون ..

وفي العصور المظلمة ، قال العرب ان لا قدرة علـى تغيير اتجاه الزمن ، لا ارادة الانسان ، ان الله اوصلهم الى القمـة فبالغوا اقصى درجة ممكنة ثم كان لا بد من الهبوط وانهم سوف يرتفعون حسب نفس الخط التعرجي الذي مروا فيه والصحيح انهم حتى في حالتهم التعيسة ما انفكوا يعتقدون « انهم المتحضرون الحقيقيون اخلاقيا واجتماعيا وتصرفيـا ... وانهـم ليسوا ادنى ولا مساوين لنـا (للفرنسيين) لكن ارفع واعلى » (ر. مونيه : في علـم الاجتماع الاستعماري) . ومع ان الايمان بالقدر اعتقـاد عام تقريبـا ، الا ان الغربيين يرونه اوضح ما يكون عنـد المسلمين وبدون ان يرتكز على اساس معقول ، يميز ليبنز مثـلا ، بين ثلاثة مفاهيم للقدر : رواقي ومسيحـي واسلامي يقول عن الاخير : انه خاص بالعرب الذيـن يقولون « هذا ما كتب » ويستفيدون منه كي لا يعملوا شيئا اي اذا هبت النار في البيت يجب الانتظار .. »(٢٣)

ان تحيـا الشعوب فلسفة تاريخية مشابهة او قريبة من هذه التي عرفت عن العرب ، شيء عادي بل وعلمي ايضا ، فحتى المؤرخ ، لا يمكن له ان يبحث في ميدانه الخاص دون ان يحدد للتاريخ هدفا فعل الشعوب التي تعيش فلسفتها .

لا بد من تحديد هدف ما واعطاء الحوادث التـي جرت وتجري معاني معينة ، فالتاريخ كعلم انساني حسب تقسيم دلثي للعلوم ، لا يمكن ان يتحول الى علم طبيعي ، ولا نقدر ان نسرد الحوادث والوقائع عـرضا مـوضوعيـا ودرسا كدرس الكيماوي لتركيب الماء او لتحطيم الذرة . انه « يتعاكس مع العلم (٢٤) » وهو منهج اصيل لمعرفة الانسان لا بالقانون المجرد واللازمني وانما بملاحظة الفردي والمتتابع والثابت في نقطة معينة في المكان والزمان) . »(٢٥) . لا تجارب في التاريخ ولا معامل فلا رجعة للزمن او عود للوقائع ، ولا يمكن للحوادث ان تكون متشابه تماما والمؤرخ يعطيهـا المعاني « فالطبيعة بحدذاتها حيادية ، ونلاقي في الوثائق ما نضعه فيها ، » وهو يجمع بين الماجريات بخيط من العقلانية والوصل والاستمرار فلا يصدق القول بوجود تاريخ دون القول مسبقا بوجود فلسفة تنظم وتبني موضوع او مادة التاريـخ (٢٦) . بل ان مـهل Mehl يقول « بعدم وجود مادة تاريخية صافية » ، فليس المـؤرخ الة تسجل وانما هو يتمثل الماضي من خلال فلسفته الخاصة وثقافته وبيئته وعصره .

ان كل فهم للماضي او استكشاف للاقدمين يتطلب التخلي من المشاغل الحاضرة المكانية والزمنية والذاتية وهنا تكمـن المعجزة التاريخية .

ان ابن العديم مثلا من افضل من اتبع قواعد الاقدمين التاريخيـة الايجابية والداعين الى الموضوعية المطلقة مـع ذلـك كان الموضوع الذي كتب فيه كان موضوعا شخصيا خاصا وذلك امر عام ، فكتب المؤرخ « الجواب على سؤال ينبع من صميـم قلبه وروحه » (مارو . نفس المصدر) ـ كذلك كانت الحالة بالنسبة للدكتور سامي الدهان الذي نشر احد الكتب لابن العديم ووصفه بالموضوعي و ... ـ واللاتحيز التام . ولكنه امر عادي ان ينشر احد الاباء في مجلة « المسرة » يتهم الاول ـ الذي يدعى بالسير علـى القواعد التاريخية التقليدية المؤمن بصحتها ـ بالتحيـز الديني وعدم ذكـر البعض من المؤرخين المسيحيين ...

من الممكن اذن الاستنتاج ، ان كتابة التاريخ لا تستقل عن مشاكل الحاضر بل تبدا من الوضعية الحاضرة لتعيد بناء الماضي وتركيبه لا احياءه تماما ، وان التاريخ « يساعد على بناء ذاتية الانسان وهو يكون المؤرخ كما يكونه هـذا بدوره ... وان هدفه الكائن البشري نفسه » (٢٧) . وان الذاتية التي قبلها الفكر والمنطق وتعقلنت تقرب مـن الحقيقة وهي الواقع والموضوعية التاريخية الممكنة ...

والاستنتاج الثابت ان العلم لا يتنافى او ينفي المناقبية والمثل الانسانية لقـد « استخـرج العـلم القـوانين التي سمحت بتصميم السيارة ، اما التقنية التي هـي التطبيـق فانهـا تصنعها وتبقيها في حالة جيدة .. ولا يقـل عـن ذلك دور الاخلاق التي تحذر السائق من العربدة والسكر .. ان اللااخلاقية قضت على رجال وشعوب اكثر مما فعله الجهل . » (٢٨)

فليكـن التاريخ اخلاقي الغايـة ولنضع له هدفـا هو احترام القيم والمثل وخير البشرية ونفعها العام ، انه من غير الممكن اعطاء الحوادث معنى ان لم نحدد مثل هذا الهدف ..

رب قائل اننـا عدنـا الى فلسفة التاريخ الموصوفة « بالنوع الاول » (٢٩) والحقيقة ان هذه بمفهومها القديم كنظرات ميتافيزيكية شاملة او تنبؤات قد « اختفـت لان المعرفة التاريخية اصبحت فلسفية » على حد قول كروتشي (٣٠) .

(22) G. Gusdorf - traité de métaphysique P. 348

(23) in A. Cresson : Marc-Aurèle P. 82

(23) in A. Cresson : Marc-Aurèle 9. 82

(24)-(25) J. Hours, valeur de l'histoire P. 78

(26) J. Hours valeur de l'histoire P.P. 52-68

(27) P. Ricœur : Histoire et vérité P. 52

(28) R. Le senne : traité de Morale P. 32

(29)-(30) R. Aron Loco cit. P. 285